

الكعبة

قريش تبني الكعبة سنة ١٤ قبل الهجرة - ٨٠٦ ميلادية

ألقى هذا البحث القيم مشفوعاً بالرسوم الهندسية والصور الشمسية الأستاذ الكبتن كرزول أستاذ العمارة الإسلامية بمعهد الآثار الإسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بدعوة من الجمعية ، وقام بتعريبه الأستاذ السيد محمد رجب مدرس العمارة الإسلامية بالمعهد المذكور .

كانت الكعبة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بيتاً مكوناً من سور صغير مبنية « برضم يابس ليس بمدر تنزوه العناق » . وكان ارتفاعها من خارجها من الأرض إلى أعلاها تسعة أذرع (أى نحو أربعة أمتار ونصف المتر) على رواية الأزرقى ، أو أكثر قليلاً من قامة الرجل على رواية ابن هشام . وكان بابها بالأرض ولا سقف لها وإنما تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من بطنها . وكان فى بطن الكعبة عن يمين الداخل جب يكون فيه ما يهدى إليها من مال وحلية كهيئة الخزانة ، وكان مخططها مستطيلاً أبعاده كما يلي :

فطول الضلع الشمالى الشرقى ٣٢ ذراعاً

والضلع الشمالى الغربى ٢٢ ذراعاً

والضلع الجنوبى الغربى ٣١ ذراعاً

والضلع الجنوبى الشرقى ٢٠ ذراعاً

فالنسبة بين طولها وعرضها على وجه التقريب هى ٣ : ٢ . وقد لبَّستْ فى أركانها الأربعة حجارة أربع كان يُقدَّسُها العرب لشكلها الخاص وأصلها المجهول . ويظن أنها قد تكون مما قذفت به الصواعق والشهب . وفى عهد الرسول كانت هناك أحجار كثيرة أخرى سوى هذه ولكنها كانت أحدث من الأولى عهداً .

وكانت دور أهل مكة تكاد تلاصق الكعبة . ويتضح ذلك مما روى من أن عمر بن الخطاب حين أراد توسيع المسجد الحرام اضطر إلى شراء بعض المنازل من أصحابها وهدمها وزيادتها فيه . وقد أشار إلى ذلك البلاذرى بقوله : « ثم هدم

(أى عمر) على قوم من جيران المسجد أبوا أن يبيعوها (أى منازلهم) ووضع لهم الأثمان حتى أخذوها بعد .

وهذه حقائق هامة . فهي تهدم نظرية أولئك الذين يحاولون خطأ أن يثبتوا أن المسقط الأفقى للمسجد قد اشتق من المسقط الأفقى للبيت الحرام بمكة . ومن أمثلة هذه المحاولات ما كتبه « لين بول » Lane Poole :

« إن المسقط الأفقى المكون من رجة أو صحن مكشوف تطيف به سقفيات وبوائك تحملها أعمدة ليس سوى إحياء لتخطيط المعبد السامى العتيق الذى نرى أمثلة منه فى أطلال الفينيقيين وغيرهم وكذلك فى السقائف التى تطيف بالكعبة (مع أن هذه السقائف لم تكن قد بنيت حتى سنة ٢٦ هجرية - ٦٤٧/٦٤٨ ميلادية) وكان من الطبيعى أن يتخذ العرب ذلك التخطيط لأنه كان أكثر الأشكال ذبوعاً عندهم وملاءمة لجو بلادهم وطقوس ديانتهم » . ١ هـ

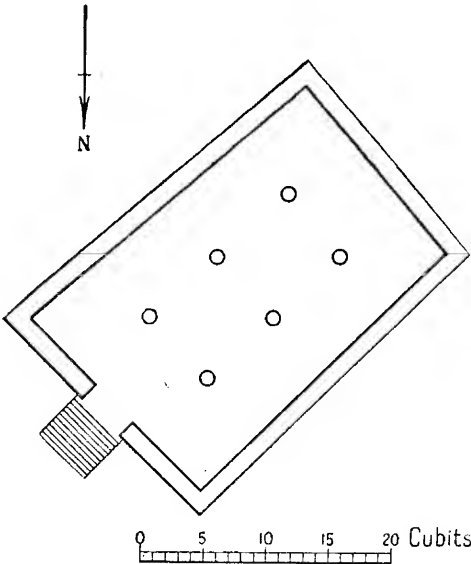
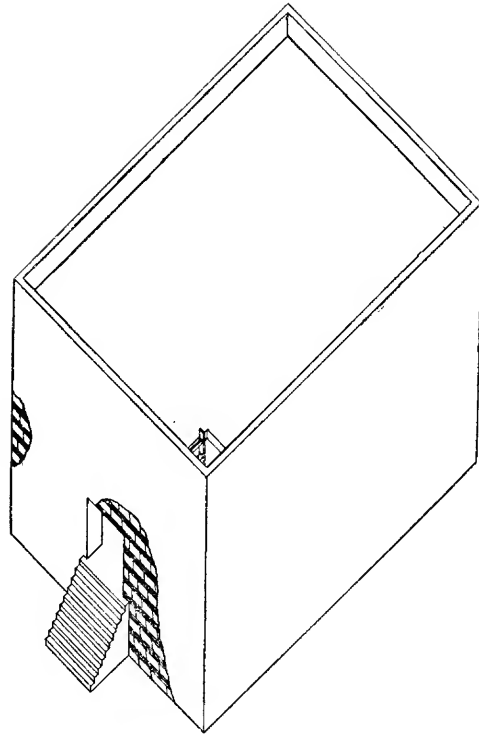
قريش تبنى الكعبة سنة ١٤ قبل الهجرة - ٦٠٨ ميلادية

وقد روى الأزرق قصة ذلك فقال :

« . . . ثم إن امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها وكانت الكسوة عليها ركاماً بعضها فوق بعض فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب وتصدعت وكانت السيول متواترة عوارم فجاء سيل عظيم على تلك الحال فدخل الكعبة وصدع جدرانها وأخافهم ففرغت من ذلك قريش فرعاً شديداً وهابوا هدمها وخشوا أن مسوها أن ينزل عليهم العذاب وبينما هم على ذلك يتناظرون ويتشاورون إذ أقبلت سفينة للروم حتى إذا كانت بالشعبية وهى يومئذ ساحل مكة قبل جدة انكسرت فسمعت بها قريش فركبوا إليها فاشتروا خشبها .

وكان فى السفينة رومى نجار ببناء يسمى باقوم فلما قدموا بالخشب مكة قالوا : « لو بنينا بيت ربنا » . فأجمعوا لذلك وتعاونوا عليه وترافدوا فى النفقة ونقلوا الحجارة . فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجارة والخشب وما يحتاجون إليه عدوا على هدمها حتى بلغوا الأساس الأول » .

وروى البلاذرى « ... كان باب الكعبة على عهد إبراهيم عليه السلام وجرحهم والعاليق بالأرض حتى بنته قريش فقال أبو حذيفة بن الغيرة يا قوم : ارفعوا باب



(شكل ١)

الكعبة حتى لا يدخل إلا بسلم
فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من
أردتم . فإن جاء أحد ممن
تكروهون رميت به فسقط فكان
نكالا لمن وراءه . فعملت
قريش ذلك » .

ويستمر الأزرقي في روايته
فيقول « . . . وبنوها بساف من
حجارة وساف من خشب بين
الحجارة فبنوا حتى رفعوا أربعة
أذرع وشبرا ثم كبسوها ووضعوا
بابها مرتفعا على هذا الذرع
ورفعوها بمدماك خشب ومدماك
حجارة حتى بلغوا السقف فقال
لهم باقوم الرومي . « أتحبون أن
تجعلوا سقفها مكبسا أو
مسطحا؟ » فقالوا : « بل ابن
بيت ربنا مسطحا » ، فبنوه
مسطحا وجعلوا فيه ست دعائم
في صفين في كل صف ثلاث
دعائم من الشق الشامي الذي
يلي الحجر إلى الشق اليماني ،
وجعلوا ارتفاعها من خارجها
من الأرض إلى أعلاها ثمانية
عشر ذراعا . وكانت قبل ذلك
تسعة أذرع فزادت قريش في
ارتفاعها في السماء تسعة أذرع
أخرى .

وينوها من أعلاها إلى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً والحجارة ستة عشر مدماكاً. » (أى أن جملتها واحد وثلاثون مدماكاً وتبتدىء وتنتهى بمدماك من الحجارة).
« وجعلوا درجة من خشب فى بطنها فى الركن الشامى (أى الشمالى) يصعد منها إلى ظهرها. »

ولما كان هذا الدرج يرفى منه إلى السطح فىنى أعتقد أن هذا الأخير كانت تقوم عليه دروة. (شكل ١).
وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية أن النجار الذى بنى الكعبة كان قبطياً وأنه كان بمكة حينذاك ولكنه لم يذكر اسمه.

الزخارف الداخلية بالكعبة :

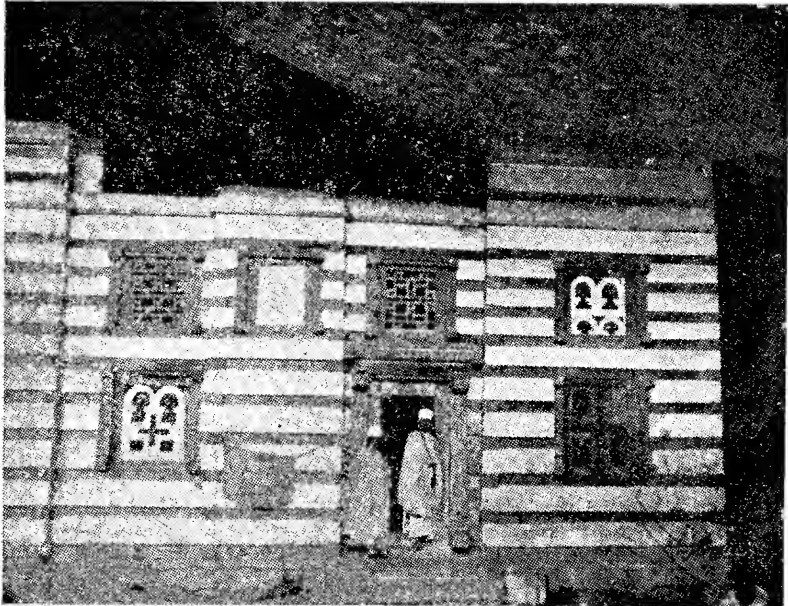
ولعل أهم قسم فى رواية الأزرقى هو وصفه للزخارف التى كانت تزين باطن الكعبة فهو يقول : «... وزوقوا سقفها وجدراؤها من بطنها ودعائمها وجعلوا فى دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة . فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن شيخ يستقسم بالأزلام وصورة عيسى بن مريم وأمه وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين . فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب قبل بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال : امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي . فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وأمه ونظر إلى صورة إبراهيم فقال قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالأزلام ما لإبراهيم وللأزلام . . . وعن ابن جريج قال : سأل سليمان بن موسى الشامى عطاء بن أبى رباح وأنا أسمع هل أدركت فى البيت تمثال مريم وعيسى ؟ قال : نعم . أدركت فيها تمثال مريم مزوقاً فى حجرها عيسى ابنها قاعداً . . . وكان تمثال عيسى بن مريم ومريم عليهما السلام فى العمود الذى يلي الباب . قال ابن جريج : فقلت لعطاء متى هلك ؟ قال : فى الحريق فى عصر ابن الزبير قلت : أعلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان ؟ قال : لا أدرى وإنى لأظنه قد كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم قال له سليمان أفرأيت تماثيل صور كانت فى البيت . من طمسها ؟ قال : لا أدرى ، غير أنى أدركت من تلك الصور اثنتين درسهما وأراهما والطمس عليهما . قال ابن جريج ثم عاودت عطاء بعد حين فخط لى ست سوار . . . ثم قال تمثال عيسى وأمه عليهما السلام فى الوسطى من اللاتى تالين الباب الذى يلينا إذا دخلنا . . . وعن عمر بن دينار قال : أدركت فى بطن الكعبة قبل أن تهدم تمثال عيسى بن مريم وأمه . » اهـ

الأصول المعمارية

من أين استمد أو اشتق هذا الطراز المعماري لبناء الكعبة بما فيه من مداميك من الحجر تتناوب مع مداميك من الخشب ؟

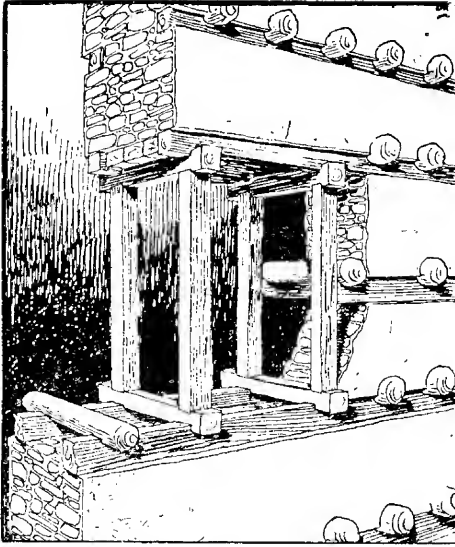
إن من المحقق ، أن مثل هذا الطراز لا يمكن أن يكون منشؤه أو موطنه جزيرة العرب حيث الخشب فيها على ندرة . وعلى ذلك فقد استمد من قطر آخر تكثر فيه الغابات والأخشاب . فما هو يا ترى ذلك القطر ؟

إنه على وجه التأكيد بلاد الحبشة ، حيث غابات الأخشاب الكثيفة وحيث نرى هذا الطراز بعينه ممثلاً بخصائصه وميزاته الفنية في كثير من الأبنية التي نكتفي بأن نعرض من نماذجها كنائس دبرا دامو (لوحة رقم ١) ودبرا لبانوس وأمرا حنا كريستوس (أمره) وأسمره .



(لوحة رقم ١)

كنيسة أمرا حنا كريستوس (أمره) - الوجهة الشمالية عن بكستون



(شكل ٢)

بناء جدران الكنائس الحشبية وإطارات نوافذها
(عن كرنكر)

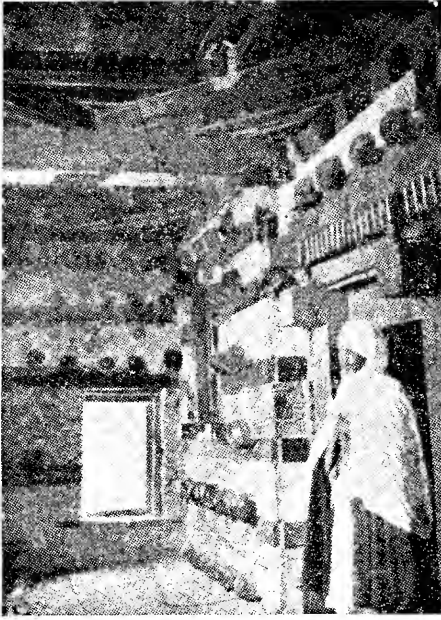
وأقدم هذه الكنائس جميعاً هي كنيسة دبرا دامو وقد كان أول من قام بدراساتها بعثة أكسوم الألمانية في سنة ١٩٠٦ م ثم درسها أخيراً العالم بكستون الذي سمح له بدخولها بعد أن كان ذلك محظوراً على العلماء منذ سنة ١٩٠٦ م. وقد وصف هذا العالم جدران تلك الكنيسة وكيفية بنائها فقال :

« بنيت جدران هذه الكنيسة وبابها وإطارات نوافذها بطريقة خاصة متميزة (شكل ٢) لم يشذ عنها سوى أركانها حيث

نجد أحجاراً مربعة مستعملة فيها . أما الجدران نفسها فقد بنيت من حجارة صغيرة خشنة يشبه أكثرها التريعات مقلوعة من الصخور المحلية وموضوعة على سطوحها في مونة طينية وتتعاقب مع هذه المداميك مداميك أخرى من الخشب موضوعة أفقياً كل منها مكون من كتلتين إحداها من ظاهر البناء والأخرى من باطنه . ويقطع هذه المداميك خشبٌ قصيرٌ مدوّرة الرؤوس كثيرة العدد ناتئة عن البناء من ظاهره وقد تكون ناتئة من باطنه أيضاً وهي منجورة من أسفلها حتى يمكن تثبيتها فوق الكتل الأفقية التي تقوم هي بمهمة ربطها لتقوية بنية الجدران مما يدعونا إلى أن نسميها « الروابط » ويطلق الأحباش على هذه الخشب المدورة الرؤوس البارزة بظاهر الجدران اسم « رؤوس القردة » .

وتخلو الكنيسة الأخرى وهي كنيسة أمرا حنا كريستوس وهي أحدث عهداً من السابقة من الكتل الحشبية المستعرضة ورؤوسها المدورة التي وصفناها آنفاً (لوحة ٢ ، ٣) .

ويرى كرنكر أن كنيسة دبرا دامولا يمكن أن تكون أحدث من القرن الحادي عشر الميلادي ويوافقه بكستون على ذلك وإن كان الأخير منهما يميل إلى



(لوحة ٢)

كنيسة ديبرا داموا وترى الواجهة الغربية
الأصلية إلى اليمين

(عن بكستون)

العصر الذى أقيمت فيه بأكسوم
تلك الأنصاب الحجرية الهائلة
المكون كل منها من قطعة واحدة
من الحجر فقد نحتت هذه
الأنصاب على شكل المنازل
المتعددة الطوابق وقلدت بها جدران
تلك المنازل بما فيها من الخصائص
والمزايا المعمارية التى سبق أن أشرنا
إليها من قبل (شكل ٣) .

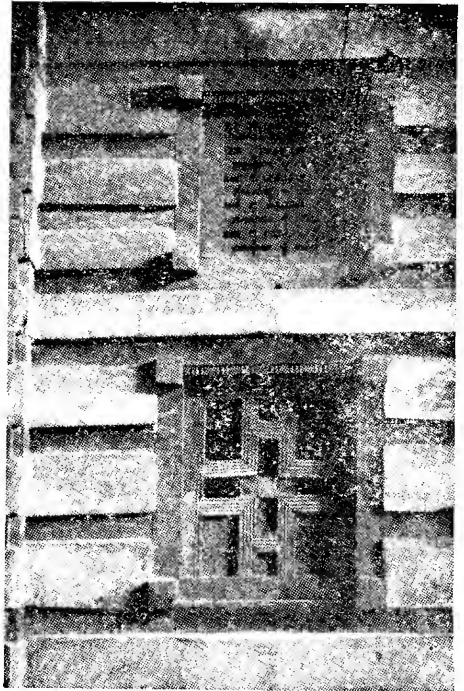
(لوحة رقم ٣)

كنيسة أمرا حنا كريستوس
نافذتا الطرف الشرقى

(عن بكستون)

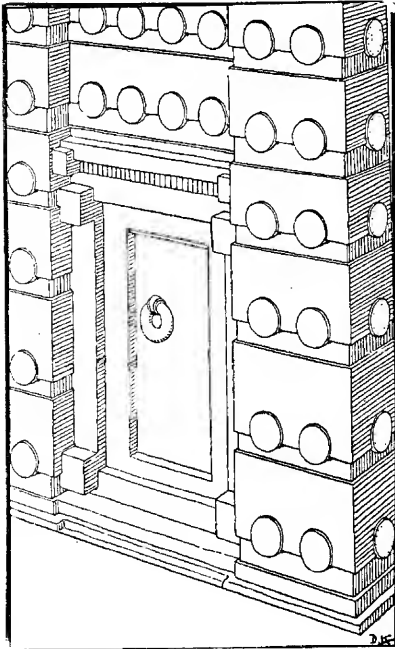
تأريخ البناء نفسه فى القرن التاسع
أو العاشر وفى إرجاع أمرا حنا
كريستوس إلى القرن الثانى عشر .
وهذا بلا شك تأريخ لاحق
وبعيد عن العصر الذى نبحث
عن نماذجه المعمارية القديمة
السابقة التى يمكن أن تعتبر المثال
الذى بنيت الكعبة على طرازه .

إلا أننا لحسن الحظ
نستطيع أن نبرهن على أن هذا
الطراز كان معروفاً وشائعاً فى
بلاد الحبشة فى عصر يسبق
كثيراً تأريخ بناء هذه
الكنائس . وبمعنى آخر ذلك



وكانت تلك الأنصاب ضخمة الارتفاع حتى ليلعب ارتفاع أكبرها ١١٠ أقدام (- ٣٣,٣٠ متراً)، أى أنه أكثر ارتفاعاً من أعلى مسلة مصرية معروفة وهى مسلة حتشيسوت بالكرنك التى يبلغ ارتفاعها ١٠٨ أقدام وعشر بوصات .

وقد سقط هذا النصب الضخم مع الأسف وتحطم ، وكان يشبه منزلاً ذا ثلاثة عشر طابقاً . على أنه لا تزال هناك بعض الأنصاب الأقل ارتفاعاً قائمة ويبلغ ارتفاع أعلاها ٧٠ قدماً وبه تسعة طوابق . وهذه الأنصاب مسلوقة من أعلاها وتنتهى بشكل هلال وهى شارة محرم إله الحرب عند الأحباش .



(شكل ٣)

اكسوم : رسم يبين نحت الأنصاب على شكل المنازل المتعددة الطوابق وقلدت فيها جدران المنازل بما فيها من الخصائص والمزايا المعمارية المشار إليها (عن كرنكر)

ونحن نعلم أن الملك عيزانا الذى يسميه ليمان « قسطنطين الحبشة » قد اعتنق الدين المسيحى فى القرن الرابع الميلادى وجعله ديناً رسمياً للدولة . وعلى ذلك فإن هذه الأنصاب الوثنية ترجع على أكثر تقدير إلى القرن الرابع : قبل إعلان المسيحية ديناً رسمياً للحبشة إن لم تكن أقدم من ذلك .

وينتج من ذلك أن تلك الظواهر المعمارية التى رأيناها متجلية فيها لا بد كانت معروفة ذائعة ومستعملة فى بلاد الحبشة فى ذلك التاريخ المبكر أى فى القرن الرابع الميلادى وأنقرون السابقة له مما يبرر بل ويؤكد

صدق نظريتنا في اقتباس طراز بناء الكعبة من الأبنية والنماذج الحبشية .

العلاقات بين الحبشة وبلاد العرب قبل الإسلام :

إن دراسة العلاقات بين الحبشة وبلاد العرب قبل الإسلام أمر بالغ الخطورة والأهمية لتجلية هذه الحقيقة وغيرها مما يتصل بتاريخ تلك البلاد . فإلى أى مدى كانت هذه العلاقات وماذا كانت مظاهرها ونتائجها ؟

إن الجواب على هذا السؤال تعتوره بعض الصعاب ، لما نلاحظه في المراجع اليونانية والعربية من الاضطراب ولما يشوب الأخبار والروايات من الخرافة والخيال . إلا أننا مع ذلك يمكننا أن نقرر أن الجيوش الحبشية غزت بلاد العرب الجنوبية أربع مرات .

الأولى : في القرن الأول الميلادي ، إذ غزت الحبشة جزءاً من غرب بلاد اليمن .

الثانية : في أوائل القرن الثالث الميلادي ، وفيها فتح الأحباش المنطقة الساحلية حتى شمالي اليمن .

الثالثة : في آخر القرن الثالث ، حين غزا ملك الحبشة المسمى أفيلاس بلاد العرب الجنوبية . وقد بقيت في قبضة الأحباش حتى الفترة الواقعة بين ٣٤١ و ٣٤٦ ميلادية .

وقد سجلت أخبار هذه الغزوة في نقش تاريخي باللغة اليونانية نقل نصه «كوسماس انديكوبلوستاس» قبل سنة ٥٢٥ م بقليل ، وأشارت إليه البعثة الألمانية للتنقيب بأكسوم .

الرابعة : الغزوة التي بدأت في سنة ٥٢٦ م ، واستمرت حتى الغزو الفارسي سنة ٥٧٠ م ، وفي هذه المرة تقدم أبرهة القائد الحبشي قاصداً مكة ، ويظهر اسم هذا الرجل على النقش الكتابي التاريخي على سد مأرب الشهير ، وفي هذا النقش يلقب أبرهة نفسه « الأمير التابع لملك الحبشة ملك سبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الجبال والساحل . »

هذا من ناحية الغزوات . أما من النواحي الأخرى فنحن نعلم أنه في السنة الخامسة لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم هاجر إلى الحبشة ما لا يقل عن ٨٣ عائلة من المسلمين هرباً من الاضطهاد الذى تعرضوا له في وطنهم .

وإن بلالا مؤذن الرسول كان حبشياً .

كما أن الأزرقى يقول إن الكعبة لما تشعت في حريق سنة ٦٤ هجرية « أرقى ابن الزبير فوقها عبيداً من الحبش يهدمونها » .

أضف إلى ذلك أن الأحباش تركوا نموذجاً من عمارتهم في بلاد العرب هو كنيسة القليس التى شيدها أبرهه للنجاشى ، وكتب إليه يصفها بقوله : « إني قد بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبين العرب ولا العجم مثله ، ولن أنتهى حتى أصرف حاج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم » . وقد وصف المؤرخون هذه الكنيسة وصفاً مسهباً ، منهم الأزرقى وأبو صالح ، وأشار إليها الطبرى ، كما ذكر المسعودى أنه « حُمِلَ إلى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التى كان بناها أبرهه الحبشى فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاثة أساطين من رخام فيها وشى منقوش قد حشى النقش السندروس وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً » . وكان ذلك حين شرع ابن الزبير فى بناء الكعبة فى سنة ٥٦٤ / هـ = ٦٨٤ م .

باقوم :

نعود الآن إلى بانى الكعبة النجار البناء باقوم الرومى ، فهل كان حقيقة رومياً أو قبطياً ؟ إننى أميل إلى الاعتقاد بأنه كان حبشياً ، لذلك بعثت إلى الأستاذ الدكتور إنو ليمان الذى كان عضواً ببعثة التنقيب الألمانية بأكسوم بالحبشة فى سنة ١٩٠٦ مستفسراً عما إذا كان اسم باقوم يمكن أن يكون حبشياً ، فأجاب بأن هذا الاسم لا يمكن أن يقابل فى اللغة القبطية باخوم (باخوميوس) ، لأنه فى هذه الحال لا تنطبق عليه القاعدة الصوتية ، لأن الصوت « خ » لا يقبله العرب قافاً فى نطقهم . ويعتقد الأستاذ ليمان أن اسم باقوم هذا هو اختصار للاسم الحبشى « أنبا قوم » ، وهو رأى أتقبله بالغبطة والسرور ، لأنه تعززه وتؤيده الحقائق المعارية .

ولقد كان العالم ليونى كايثانى يذهب إلى القول بأن قصة تعمير قریش
للكعبة ليست إلا خرافة من نسج الخيال فالیوم یثبت انا جلیاً بعد ما أوردناه من
الحقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشى فى سنة ٦٠٨ ميلادية ووجود الصور
المسیحية التى كانت تحلى باطنها وقيام معمار حبشى ببنائها - وهى جميعاً حقائق
متأسكة آخذ بعضها برقاب بعض - صدق رواية المؤرخین الذين قصوا أخبار
هذه العارة وصحة ما ذهبنا إليه وبطلان ما يدعیه كايثانى من اختراع هذه القصة
وتلفیقها .

ك. أ . کرزول

ترجمة

السید محمد رجب